سيـرة مَـدْرَسَـة
(فصل من رواية)

مشهور البطران

لم تكن حرب تشرين حاضرة في حياتنا المدرسية، المدرسة تمضي قدماً وكأن شيئاً لا يحدث خارج أسوارها المنيعة، ولا أتذكر ولو لمرة واحدة أن أحداً من معلمينا حدثنا عن تلك الحرب وأهوالها، كل ما رسب في ذاكرتي من تلك الحقبة هو حصيلة ما قرأته وسمعته من مرتادي المقهى الذين أقرأ لهم جريدة الشعب اليومية، إضافة إلى نتف من أحاديث وحكايات عابرة كانت تدور في الحوش يترأسها- بجدارة من خبر دروب السياسة- عمي عبد ربه[1] الموصوف بقوميته الراديكالية، وكان عمي بحكم تطرفه يبالغ في وصف خسائر العدو، بحيث لو مضت خسائر الإسرائيليين وفق تقديراته المتهورة فلن يبقى جندي إسرائيلي واحد على قيد الحياة لو استمرت المعركة ستة أشهر أخرى.

ولما كانت المعرفة في المدرسة تنسرب باتجاه واحد- من المعلم للطالب- فقد كنا نتهيب أن نسأل معلمينا عما يحدث في العالم. لم تكن الأسئلة جزءاً من الثقافة المدرسية، بل على النقيض تماماً كانت أحد المحظورات، وخصوصاً إذا كانت خارج الكتاب المقرر. ولعل ذاكرتي المدرسية محشوة بالمواقف الباعثة على الإحباط جرتها عليَّ "أسئلتي الوقحة".

كيف لي أن أعلل يومذاك أن الأسئلة هي بمثابة إمساك المتعلم بزمام المبادرة، الأمر الذي لا يستقيم ومعايير السيادة المدرسية في مجتمع موبوء بالسلطة؟ وكيف لي أن أفسر أن الأسئلة هي دبابيس تخترق العالم الخواء وتعريه؟

ذات يوم "تواقحت" أكثر مما يجب لتلميذ في صفه الثالث، وسألت المعلم بشغف طفل يسعى لاستكشاف حدث هائل:

- "يا أستاذ شو صار في الحرب؟"

وكأن السؤال هوى من السماء كشهب، ران الصمت وخيم على الفصل هدوء ثقيل، بعد لحظات كسر المعلم الصمت ورد بلهجة باردة لا تناسب حرارة سؤالي:

- هذي شغلات كبيرة عليكو . . . تتكبرو بتعرفوها.

وحزنت لتجاهله سؤالي، ما خلَّف في نفسي مرارة الخجل أمام تلاميذ الصف. على نقيض المدرسة تماماً كان مقهى الميدان الضاج بالحياة مهموماً بالحرب لحظة بلحظة، مفتوناً بأدق تفاصيلها، في باحتها يلتم المخاتير والمتبطلون منذ شقشقة الفجر لا يفارقونها إلا في هزيع الليل، وهم يلوكون الأخبار ويجترون تفاصيلها صانعين منها انتصارات وهمية، ليتقيئوها في آخر الليل خيبات وهزائم في بيوتهم المقفرة.

لدى عودتي من المدرسة كنت أتعمد التمهل بشكل لافت من أمام المقهى، وربما كنت ألجأ إلى افتعال حركات صبيانية كي ينتبهوا لوجودي، حينها يندهني أحدهم، فاتخذ مجلسي بينهم واحداً منهم سوى أن فضيلتي الوحيدة أنني اقرأ وهم لا يقرؤون. أتناول الجريدة بكبرياء طفل اخترق عالم الكبار؛ متعمداً التمهل في استعراض العناوين الكبيرة كيما أغالب هفوات نحوية محتملة. مع الأيام اكتسبت الدربة الكافية للذهاب مباشرة إلى العناوين المهمة متخطياً عمليات التنقيب المضنية.

في بعض الأحايين كان يسبقني إلى مهمة القراءة أحد التلاميذ الأكبر سناً، فأعود خائباً منكوءاً ألوك غيظي، سابّاً الأقدار التي رمته في طريقي.

كنت أشعر أن قراءة الجريدة هي الاختبار الأمثل لما أتعلمه في المدرسة. سوى أنه امتحان مرغوب لكلينا، فهو لا ينطوي على علامات للحكم عليَّ من خلالها، فهم يريدون أن يعرفوا الأخبار وأنا أريد أن أحقق ذاتي القلقة في عالم الكبار. لكن الأهم من ذلك أنني كنت دوماً مع الجريدة أمام عالم معرفي خارج أفق التوقع، فثمة دوماً كلمات وأفكار ومصطلحات جديدة تستدعي الدهشة، وهذا بحد ذاته امتحان آخر لي.

أحياناً كانوا ينفحوني قليلاً من قروش نظير ما أقوم به من جهد، فأعود إلى البيت منتشياً من الفرح، أياماً عدة على هذه الحالة، قرش أو اثنان كل يوم، وهكذا كان عليَّ أن اشتري بفائض الحاجة حصَّالة نقود تدرأ عني شرور العوز، ورحت أصمم مشاريع صغيرة لمستقبل واعد بالثراء، واشتريتها، كرة خضراء من البلاستيك، لها قاعدة وفتحة في قمتها لإسقاط النقود. غير أنها لم تحظ باستضافة قرش واحد وإلى الأبد، فقد حدث الأمر الذي غيب دوري في المقهى نهائياً من قارئ جريدة "شاطر" إلى متبطل فضولي مفتون بأغاني سميرة توفيق.

لقد ضغط رواد المقهى على صاحبه لشراء مذياع، وما هي إلا أيام معدودات حتى نصبه في صدر المقهى، يلعلع بآخر الأخبار والأغاني، على هذا النحو كسدت الجرائد، وكسدت معها بضاعتي، فلم يعودوا بحاجة إلى القارئ المزدهي بشطارته، ولعنت هذا الاختراع الغبي الذي جردني من امتيازات المقهى.

يوماً بعد يوم استوعبت الصدمة، بل إن المذياع راق لي حين بدأت اكتشف مزايا هذا الاختراع بما استدخله إلى عالمنا المقفر من بهجة الموسيقى والغناء، لقد أحدث هذا الاختراع عادة جديدة لكل تلاميذ جيلي، حيث كنا نجتمع عصر كل يوم ونأخذ مجلسنا على درج بيت الحاج عامر المحاذي للمقهى، ونسمع أغاني سميرة توفيق، ومسلسلات إذاعية تبثها إذاعتا صوت القاهرة والشرق الأوسط.

من تلك الحقبة الغنية بالحياة والأحداث الكبيرة علق في ذاكرتي اسم عبد الناصر إلى الأبد، اسم كالهواء يتنفسه الناس لحظة بلحظة، لم يكن الاسم بالنسبة لي أكثر من اسم عادي مدوَّن على صورة جانبية بالأبيض والأسود لرجل يلبس بذلة وربطة عنق معلقة في دار عمي، كنت أرى الصورة نفسها معلقة في بيوت الجيران وفي المقهى، لكن الاسم والصورة يعودان بي لسنتين ماضيتين في تجربة من أجرأ تجارب طفولتي:

كان شتاء مباركاً، والمطر مدراراً، والناس يتحلقون حول المواقد الحطبية لا يخرجون من البيوت إلا لأمس الحاجة، وكان ثمة هتاف جماعي مموسق يتناهى من بعيد، لم أستطع مغالبة إغراء الصوت الهادر، لكن نظرات التحذير الأبوية تعرقل عزم مخططاتي، الهتاف يدنو وتتصاعد وتيرته على وقع الرعود ووميض البروق:

"عبد الناصر يا غالي يا باني السد العالي"
"عبد الناصر طل وشوف شوف نعشك ع الكفوف"

همت شغفاً بالصوت الهادر الرتيب أكثر من أي شيء آخر، فأنا في سن لا أعرف معها لا عبد الناصر ولا سده العالي. في لحظة ما تناسيت كل ضوابط الحوش وقفزت إلى الطريق، فإذا سيل من البشر يتدفق باتجاه الميدان، وفي مقدمته شبان يحملون نعشاً مطفقاً بأغصان البلح وشجيرات السرو. وجدت لي مكاناً ولججت بجسمي الضئيل بين الجموع ورحت أصفق واهتف من غير أن أعرف لمن ولماذا، فقط طفل صغير مندفع في تيار بشري مثل قشة على سطح ماء، فيَّ رغبة أن أتقدم إلى الصفوف الأمامية لأرى النعش المرفوع بكبرياء على أكف الرجال، لكن الازدحام يصد علي رغبتي، وكلما ظننت أنني أتقدم خطوة اكتشف أنني أتراجع خطوات عدة عن موقعي الأصلي. بعد فترة من التدافع اللامتكافئ اكتشفت أن تلاميذ مدرسة حسن باشا التحقوا بالمسيرة، وعرفت منهم تيسير، وجمال، وخالد، وآخرين، اسمعهم يقولون أن الجنازة ستصل إلى الخليل، وهناك سيدفنون الرجل، يعلق خالد قائلاً:

– مسكين عبد الناصر بدهم يدفنوه في الخليل في هالمطر.

أساله:
– وليش ما يدفنوه هان بدل الخليل إذا هو من إذنا.
يرد خالد:
– هو صحيح من إذنا بس هو من الخليل أصلاً، ولازم يندفن في بلدو.

وأحسست بالغيظ لأنهم سيدفنونه خارج البلد التي عاش فيها، كما أغاظني أكثر أنني لم أتعرف على هذا الرجل العظيم عن قرب طالما أنه من أبناء بلدنا، في هذه اللحظة سألت خالد:
– بتعرفو عبد الناصر وكنت تشوفو؟
رد مؤكدا:
– آه . . . كان جارنا وكنت أشوفو كل يوم الصبح.

وشعرت بالحسد إزاء خالد لأنه عايشه عن قرب، في حين أنني لم أحظ من هذا الرجل العظيم إلا بنظرة على صورة بالأسود والأبيض معلقة على جدران البيوت.

بعد ساعة من المشي تحت المطر بدأت معالم الطبيعة تتغير، فأدركنا أننا وصلنا إلى ترقوميا، لم أظفر بالوصول إلى الطلائع الأمامية فاكتفيت بشرف الانتماء إلى الصفوف الخلفية. في ترقوميا توقفت المسيرة في ساحة القرية، وفكرت أنهم ربما سيدفنونه في ترقوميا،[2] وكافحت مرة أخرى للوصول إلى الناصية، هذه المرة نجحت في الاقتراب من النعش، فصعقني الذهول وأنا أدنو من سفينة صغيرة من الخشب تغطيها أغصان من البلح، ولكن بلا عبد الناصر وبلا أموات. وفكرت لوهلة أنهم دفنوه من حيث لا أدري، سألت رجلاً:

– وين الميت؟
فرد بلهجة ودودة:
– أنو ميت يا شاطر؟
– جمال عبد الناصر.

ضحك الرجل وهو يتحسس رأسي المبلول دون أن يتكلم. أصابتني خيبة أمل، كان بودي لو رأيته. بعد سنوات عديدة شاهدت جنازة عبد الناصر في برنامج تلفزيوني، ومن خلفه يسير الملايين من البشر يهتفون بحياته، فأدركت روعة أن يفكر المرء بعقل طفل. وفي العام 2006 سافرت إلى مصر، وزرت قبر جمال عبد الناصر، وهناك رأيت الأجيال الجديدة من الشبان المصريين والعرب من الأقطار كافة يأتون لزيارة ضريحه، مؤدين تحية الوطن لرجل عظيم لم يجايلوه، بل انتقل لذاكرتهم عبر ذاكرة آبائهم. بجوار القبر ثمة مصور صمم صورة كبيرة لعبد الناصر بحجم تمثال، ورأيت كيف يتجاوز الناس تماثيل الزعماء المصريين الآخرين ويقفون بورع بجانب صورة عبد الناصر، ويلتقطون صوراً تذكارية وهم يحتضنون صورة من الكرتون.

في ترقوميا زاحمت بعناد كي أرى عبد الناصر، وفي القاهرة لا يوجد موطئ قدم للراغبين بالتقاط صورة لقبره.

عادت مسيرتنا المظفرة من ترقوميا، في طريق الإياب اشتد المطر، وتدفق سيل فرعة[3] عارماً كنهر، ولم نستطع خوضه، وقفنا على حافة السيل حيارى خائفين. تجرأ رجل في أربعينياته اسمه (مسلم عاصي) وخاض السيل وإذا به يخطفه مثل قشة، راح يصرخ خوفاً وجزعاً وهو يتدحرج مرتطماً بالصخور، وعلى طرف السيل يجري الشبان جاهدين لإنقاذه، على أحد منعطفات السيل علق الرجل بين صخرتين فانتشله الشبان وحملوه على الأكتاف وصاروا يهتفون من جديد: "مسلم عاصي يا غالي يا باني السد العالي". في هذه الأثناء كان الناس قد علموا بحادثة سقوط الرجل في السيل، فجاء معظم سكان القرية إما ليتحروا عن الخبر وإما ليساعدوا أبناءهم على عبور السيل، كان الرجل ما زال محمولاً على الأكتاف فيما الهتاف يتعالى: "مسلم عاصي طل وشوف، شوف نعشك ع الكفوف". كان مشهداً كوميدياً رائعاً لاختتام مسرحية جنائزية لن تسقط من ذاكرة جيل بأكمله.

وصلت البيت مع آذان المغرب متعباً، آويت إلى الفراش ونمت لأول مرة بلا كوابيس الجدة عائشة، نمت فرحاً سعيداً بتجربة ستساهم في تبدل عميق باتجاه كسر حالة الانصياع الدائم لأوامر الغير في أسرة حاكمة بامتياز.

في اليوم التالي كانت ساحة مدرسة حسن باشا تتهيأ لإعادة ترتيب مشهد الأمس لمن شاركوا في الجنازة، لقد أعدنا سرد الحكاية مرات عديدة، دون أن نغفل أي حدث مهما صغر شأنه، ونسينا عبد الناصر في غمرة وصف تفاصيل الرحلة وأهوالها. لقد غدت التفاصيل الصغيرة عن الحقول والرعاة وشكل البيوت والأشجار هي العناصر الجمالية في هذه الارتحالية التأبينية بين قريتين جارتين، لا أحد من أطفالها يعرف شيئاً عن الأخرى.

وإنني اليوم من موقعي كمعلم أقدر عالياً على إثر تلك التجربة القديمة أهمية أن يشارك التلاميذ في استكشاف جغرافية فلسطين عبر رحلات برية مشياً على الأقدام، وليس في حافلات مكيفة لا ينزلون منها إلا للغداء أو السباحة.

عندما سأصير في السادس الابتدائي (1977) سأشاهد تجربة ارتحالية جديرة بالذكر: ففيما كنت أقرأ في الخلاء مع أصدقاء لي من طلاب صفي، وكانت القراءة في الخلاء إحدى عادات جيلنا، حيث كنا نذهب إلى الجبال لنقرأ دروسنا في أوقات الامتحانات، كنا نلجأ لهذه الطريقة لعدم توفر غرف خاصة للقراءة، فالمحظوظ منا كان ينام في حجرة مع خمسة من إخوته. كان الجو ربيعياً حلواً والسهول غارقة في الخضرة الهائجة، وفيما نحن جالسون في بطن جبل نستعيد ما حفظناه عن ظهر قلب من نصوص سمعنا رطانة غريبة، وإذا بقافلة طويلة من طلبة مدارس يهود يبزغون من طرف الوادي، يتقدمهم معلمون وجنود حراسة، ولأن مفاهيم الصراع العربي الإسرائيلي لم تكن في تلك الحقبة متأصلة في وعينا فقد تقبلنا الأمر في سياقه الطبيعي. وبدأنا نراقبهم بدهشة أطفال يقتلهم الحرمان وهم ينتشرون في الجبال يأخذون عينات من الأعشاب، وبعضهم يلتقطون صوراً للصخور، وبعضهم يصورون الطيور، وآخرون يدونون ملاحظات.

وفيما كنا نراقب التلاميذ اليهود بشيء من الحسد والحسرة على ما يحملونه من مقتنيات هي بالنسبة لنا من عالم الخيال: كاميرات تصوير، حقائب جلدية فاخرة، سلال الأطعمة؛ كان جمال خليل وتيسير عبد المهدي يحضران نفسيهما لمشهد غرائبي، لقد صعدا الجبل المقابل وراحا يصرخان على الإسرائيليين شتما. فأطلق جنود الحراسة طلقة تحذيرية ظلت تبحث عن قلب جمال مدة إحدى عشرة سنة حتى أصابته في مقتل.

لم نكن نعلم يومذاك أن هذه الحادثة ستكون نقطة انطلاق لخط سيشق منحاه تصاعدياً باتجاه صياغة تجربة نضالية وطنية سينخرط فيها معظم طلاب الصف ذاهبة بهم إلى الموت أو النفي أو السجن. فبعد هذه الحادثة بإحدى عشرة سنة (19/ 4/ 1988) سيسقط جمال خليل شهيداً في مواجهة مع جنود الاحتلال فاتحاً بذلك الباب على مصراعيه لمجايليه من الشبان لوضع بلدة إذنا في صدارة البلدات التي سطرت مجد الانتفاضة الأولى.

أما تيسير عبد المهدي فسيلتحق بجامعة بيرزيت أيام مجدها، وهناك ينضم لفصائل العمل الوطني، وإبان الانتفاضة يطارده عساكر الاحتلال كواحد من أبرز الناشطين، ما سيضطره للفرار إلى مصر متسللا عبر صحراء سيناء، ولكنه سيعتقل في سجن أبي زعبل. بعد رحلة من العناء من مصر إلى تونس إلى العراق سيصل أخيراً إلى عمان عاملاً في مكتب منظمة التحرير. وبعد عودة منظمة التحرير إلى الوطن سيعود تيسير من جديد إلى إذنا، ولكن هذه المرة ليدفن في ترابها الذي تعمد على حبه الأصيل ميتاً بمرض السرطان في العام 1998.

تم الفصل الرابع
ويليه الفصل الخامس

مشهور البطران
معلم وكاتب من إذنا
mashhourbatran@yahoo.com

الهوامش

[1] عبد ربه يوسف البطران، توفي العام 2000 عن عمر ناهز 57 عاماً، ظل مخلصاً لخياراته القومية حتى آخر لحظة في حياته.

[2] قرية فلسطينية من محافظة الخليل تتوسط المسافة بين مدينة الخليل وبلدة إذنا.

[3] سيل فرعة: يمتد من جبال دورا مارا بوديان إذنا، وعادة ما يفيض في سنوات الأمطار الشديدة قاطعاً الطريق بين إذنا وترقوميا.